

بنديتو كروتشه

١٨٦٦ - ١٩٥٢

للأستاذ جمال مرسي بدر

في العشرين من نوفمبر سنة ١٩٥٢ وفي مدينة نابول الرابضة على خليجها مضرب المثل في جمال الطبيعة، انتقل من الغانية إلى الباقية رجل من بقية الفلاسفة العظام ورواد الفكر الإنساني وحملة مشعل الحقيقة - ذلك هو بنديتو كروتشه أكبر فيلسوف أنجيتته إيطاليا منذ زمن بعيد، وأحد القلائل المشهود لهم في عصرنا يعد الأثر في توجيه الفكر الحديث

ولد بنديتو كروتشه في ٢٥ فبراير سنة ١٨٦٦ في بسكا سيرولي بمقاطعة أكويلا، ثم نزلت عائلته إلى نابول حيث بدأ «بنديتو»

روح الوطنية وجمت كلتهم على القيام بها وتأريث شعلتها في وجه الاحتلال. وهي روح خبرها المازني عن كذب في هيئة مدرسته من مدرسين وتلاميذ، ومن كان يلقاهم في الطريق - بين البيت والمدرسة - من أبناء الشعب وخاصة في الأحياء الوطنية. فأعدته هذه الروح وتجاوب نداؤها الخني بين جنبيه، وعرف أن قد آن له النزول إلى المممة وخوض النار، وأن الفرسة قد سنحت لتحقيق نيته القديمة على ترك التعليم، فأغلق المدرسة وأتجه صوب الصحافة ليخدم الثورة بقله

ولعله إلى جانب ذلك، قد دار بنفسه خاطر التأسى بالذين سبقوه من زملائه إلى التفرغ لرسالة الأدب مضحين في سبيلها ووظائفهم الحكومية، وكانت على ذلك العهد غاية مطعم الشبان؛ وكان المذهب الجديد والتمهيد له مما يحتاجون منه إلى توحيد الخطة وتجنيد الجهود. فلم يكديمحين الوقت للبدء في إعلانه والدعوة إليه، حتى شمر المازني عن ساعديه، وحمل - كما يقول - فأسه ومنعوله وبمقرته ولحق بأصحابه

محمد محمود محمد

بتبع

تمله في إحدى مدارس الكاثوليك شأنه شأن أغلب فتيان وطنه وفي سنة ١٨٨٣ نكب بنديتو كروتشه وهو في صدر شبابه بأبويه جيما في زلزال من تلك الزلازل التي لا تجهلها مدينة نابول فنادرها إلى روما حيث عاش في كنف عم له. ودخل الجامعة ليدرس الحقوق ثم تحول عنها إلى الآداب ولكنه على أية حال لم يكمل دراسته الجامعية إذ لم يلبث أن عاد إلى نابول بعد سنوات ثلاث من إقامته في روما

وفي نابول عكف كروتشه سنين طويلة على دراسته الخاصة في التاريخ والأدب والسياسة والاقتصاد والاجتماع وتفاعلت ثمار هذه الدراسات في ذلك العقل المتنازع حتى أخرج صاحبه أول أثر فلسفي له في سنة ١٩٨٣ وهو مجموعة مقالات في «طبيعة التاريخ» وفي «مذاهب النقد الفني»

ولقد كان للدراسات الاقتصادية في تفكير كروتشه شأن كبير وانمكتت عقلية الاقتصادية على كثير مما كتب وإن كان موضوعه غير متصل بالاقتصاد، ولقد بدأ اهتمام كروتشه بالدراسات الاقتصادية في شبابه الباكر إذ عكف على ما كان يشغل العالم آنذاك (ولا يزال شغله) من مذاهب اقتصادية متضاربة وأخرج فيما بين سنتي ١٨٩٦ - ١٩٠٠ دراسات في نواح من المذهب الماركسي

أما اهتمامه بالنقد الفني الذي كتب فيه واحداً من أوائل آثاره فقد تجل في نشره منذ سنة ١٩٠٣ مجلته «النقد»

التي تولت عرض أبداع أعمال الأدباء الإيطاليين وقدها نقداً فنياً مذهيباً حقبية طويلة من الزمن بحيث أصبحت مجموعاتها مرجعاً لاغنى عنه لكل من يدرس الأدب الإيطالي الحديث *la critica*

ولم تتخلف عن أعمال كروتشه وكتاباته نتيجتها الطبيعية فذاع صيته في الأوساط الأدبية والعلمية. ولم يلبث هذا الشاب الذي غادر جامعة روما قبل أن يتم دراسته أن أصبح قبلة أنظار جامعات إيطاليا التي تسابقت إلى عرض كراسي الأستاذية عليه غير أنه رفضها جميعاً مفضلاً الاستغراق في دراساته الحرة وبمته المستقل الذي ينشر على الناس نتائجه في كتبه وفي رسائله فتقع من أذهانهم ونفوسهم موقع الإكبار حيناً وموقع الإنكار حيناً آخر لغرابته ما كان يدل به من آراء

كافة مظاهر الوجود الإنساني

ولكن لا أقل من أن نم في هذه المجالة بشئ من آراء كرونتشه في فلسفة الجمال . ولعل اقتصارنا على جانب واحد من جوانب هذه الفلسفة المحسبة (فلسفة كرونتشه) أكثر فائدة من مرورنا على مجل بكل جوانبها في حدود ما يقتضيه المقام من إيجاز بسط كرونتشه مذهبه في فلسفة الجمال في كتابه الذي ظهر سنة ١٩٠٢ (وطبع بمد ذلك طبعات عديدة وترجم إلى أكثر من لغة أوروبية) ثم في كتابات متفرقة أهمها المجموعة التي نشرت بعنوان « مقالات جديدة في فلسفة الجمال » (باري سنة ١٩٢٦) ليس كرونتشه من أنصار فكرة المثل الأفلاطونية ، وهو لا يرى الفن كما كان يراه أفلاطون محاولة لتقايد مثال الجمال الذي تحسه النفوس من بعيد مجردا عن موضوعاته وتسمى عن طريق الفن بمختلف صورته إلى الوصول إلى شئ من ذلك المثال ، فكرونتشه يرى أن الجمال — أو الفن — هو وموضوعاته شئ واحد ، فهو من المنادين بالوحدة بين الجمال وبين موضوعه أو بين الفن وبين العمل الفني

يقول كرونتشه إن الأفكار القبلية *a priori* كفكرة الجمال أو الفن ليست موجودة في ذاتها وإنما هي موجودة في الموضوعات المتعددة التي تتجلى فيها ، والجمال أو الفن ليس مثالا يمينا عن الإدراك تعجب به النفوس في ذاته وإنما هو نفسه الأشياء الجلية أو الأعمال الفنية التي يخطئها الحصر والتي وجدت وتوجد وستوجد في هذا العالم التنوير

ومن هذه الوحدة بين الجمال وموضوعاته وبين الفن والأعمال الفنية يخرج كرونتشه بتجديد مهمة فلسفة الجمال لا على أنها (كما كان مسلما) تعريف الفن تعريفا يسمح بمعرفة قوانين الجمال الأزلية التي تحكم كل مظاهره ، وإنما على أنها محاولة فاعلة لتنظيم وتبويب مظاهر الجمال الفني التي تمتد وتنتع على مر الزمن ، فهي بهذا الوصف علم متجدد نام دائما أبدا

والعمل الفني عند كرونتشه ليس هو الشكل المادي الذي يتجلى فيه ذلك العمل للناس ويقت في على الدهر كالألفاظ في

والن تسابقت الجامعات الإيطالية لتظفر بكرونتشه أستاذاً بها فإن الجامعات الأجنبية قد تسابقت إلى تكريمه بإسباغ ألقاب الشرف العلية عليه ، وأول ماناله من ذلك لقب دكتور فخرى في الفلسفة من جامعة فريبورج الألمانية

على أن كرونتشه لم يعدم نصيبه من الناصب العامة في بلده إذ عين في سنة ١٩١٠ عضواً بمجلس الشيوخ ثم عين وزيراً للمعارف في وزارة جيوليتي فيما بين سنتي ١٩٢٠ ، ١٩٢١ . فلما جاء العهد الفاشستي ابتعد كرونتشه عن الحياة العامة لعدم توافق آرائه وأتجاهات ذلك العهد وما كان يقوم عليه من فلسفة سياسية ولقد أثمر تفرغ فيلسوفنا للبحث والدرس والتأليف ثماراً طيبة ؛ إذ بلغت مجموعة آثاره المطبوعة سنة ١٩٢٦ عشرين مجلداً عدا ما كتبه بمد ذلك التاريخ وهو شئ كثير ؛ إذ أنه لم ينقطع عن الدراسة والكتابة إلى أن أدركته الوفاة

وكان لكثير من آراء كرونتشه الجريئة وأفكاره المبتكرة صدى بعيد وآثار بمضها حلة من الانتقاد والمجوم صمد لها كرونتشه ودخل مع معارضيه في مجاولات طويلة تولاهها يجنان قوى ويراع سوى

وقد اعتبر كرونتشه عند الكثيرين من أتباع هيجل ووصفت فلسفته بأنها « هيجلية » ؛ غير أن أغلب الباحثين اليوم — ومنهم الأستاذ جون ألكسندر سميت أستاذ الفلسفة بجامعة أوكسفورد — يخطئون هذا الرأي ويعتبرون كرونتشه صاحب فلسفة خاصة تأثر فيها بكتابات اثنين من مواطنيه هما دي سانكيستس ، وفيكور من كتاب القرن الثامن عشر

وإنه لما تجاوز نطاق مقال واحد الإلمام بجميع نواحي كرونتشه والإحاطة بفلسفته التي قسمها إلى أقسام أربعة : فلسفة الجمال ، والنطق ، وفلسفة السلوك (الاقتصاد والأخلاق) ، وفلسفة التاريخ ^(١) وهو يراها في مجموعها وحدة لا تنقسم ، وتشمل

(١) ضمن كرونتشه فلسفته مجلدات أربعة نشرها تحت عنوان عمومي « فلسفة الروح » *le filosofia della spirite* وقد ظهرت بالترتيب التالي

فلسفة الجمال *Estetica* : سنة ١٩٠٢

النطق *logica* سنة ١٩٠٥

فلسفة السلوك *la filosofia della pratica* سنة ١٩٠٨

نظرية التاريخ *Teoria della storlografia* سنة ١٩١٦

المشكلة التي تتجلى في نواح أخرى من الفلسفة كما في مسألة
الباطن والظاهر ومسألة العقل والمادة ومسألة الروح والجسم ومسألة
الإرادة والعقل

ومشكلة الإلهام والتعبير — منظوراً إليها على هذا الوضع -
هي عند كروتشه مشكلة لا تقبل الحل؛ لأن التفرقة البدئية بين
باطن وظاهر أو عقل ومادة أو إلهام وتعبير من شأنها أن تحول
دون النفاذ من نطاق إحدى الفكرتين إلى نطاق الأخرى، ذلك
أن مانسبه « الروح » — مثلاً — لا يمكن أن تصوره إلا
حالا في جسم، ومانسبه الإرادة لانعرفه إلا متمثلاً في أفعال —
وهكذا؛ فإن الثنائية لا تؤدي عند فيلسوفنا إلا إلى أحد أمرين:
إما القول بعدم الإدراك، وإما نفي المعرفة أو اللأدرية

وإذا كانت المشكلة على هذا الوضع غير قابلة للحل فلا يشك
كروتشه في أن وضعا ذلك الوضع خطأ ينبغي تصحيحه؛ وتصحيحه
هو في القول بوحدة الإلهام والتعبير. فالإلهام لا يمكن أن نتعرفه
إلا إذا ظهر في صورة تعبيرية، فهو والتعبير إذن شئ واحد، ولا
إلهام إذن من غير تعبير. وهنا يسخر كروتشه ممن يدعى أن
لديه أفكاراً لا يستطيع أن يعبر عنها، أو أن في ذهنه لوحة لا يستطيع
أن يرسمها، وينكر على هذا وذاك وجود ما يزعمانه من إلهام
ينفي كروتشه مبدأ وحدة الإلهام والتعبير على نفي الثنائية.
وليست المسافة بين نفي الثنائية وبين القول بوحدة الوجود بالمسافة
الكبيرة عند كروتشه، فهو يرى أن فلسفة الجمال تمام مبدأ
وحدة الإلهام والتعبير في بناء البدي الأكبر مبدأ وحدة الوجود.
وعنده أن إبداع قصيدة من الشعر ينطوي على اللغز الأعظم الذي
ينطوي عليه إبداع هذا الكون الكبير

وبعد، فهذه لمحات من آراء بنديتو كروتشه في فلسفة الجمال،
لأزعم لها أنها أحاطت بهذا الجانب من فلسفته كما ينبغي أن
تكون الإحاطة، ولكن إذا تسير لهذه اللمحات أن تلفت
القارئ العربي إلى هذا الفكر العظيم الذي لم ينل في بلادنا قطه
المادل من ذبوع الصيت فذلك حسبها وكفى

جمال سرسي بدر

الإسكندرية

الشعر والخطوط والألوان في التصوير، وإعما العمل الفني عنده
هو الحالة النفسية أو الانفعال النفسى لدى الفنان البدع ولدى
غيره ممن يتذوق ما أبدعه الفنان. وعلى هذا يقول كروتشه إن
الأشياء الجميلة والأعمال الفنية غير موجودة في ذاتها وإنما هي
موجودة في نفوس المبدعين والتذوقين

وإذ يتنبه كروتشه إلى ما في القول بأن الأشياء الجميلة
والأعمال الفنية غير موجودة في ذاتها من تناقض ظاهري؛ يلجأ
إلى علم الاقتصاد ليضرب مثلاً يقرب المسألة من الأذهان فيقول:
إن الاقتصاد لا يعرف للشيء في ذاته قيمة، وإنما القيمة هي وليدة
العرض والطلب وليست وليدة صفات طبيعية في ذات الأشياء.
وإذن فالاقتصاد الذي يبحث عن القيمة على هدى الصفات
الذاتية للشيء يرتكب نفس الخطأ الذي يقع فيه من يبحث عن
الجمال في المظاهر المادية التي تبدو فيها الأشياء الجميلة أو الأعمال الفنية
ومن هذه التفرقة بين الأشكال المادية التي تتجلى فيها الأعمال
الفنية وبين العمل الفني في ذاته يخرج كروتشه مبدأ وحدة الفن؛
فهو يرى أن التمييز بين الفنون المختلفة إنما هو تمييز غير جوهرى
مرجه إلى الشكل المادى الذى تبدو فيه آثار مختلف الفنون
كالأسوات في الموسيقى والألغاز في الشعر والألوان في التصوير،
أما في الجوهر فالفنون المختلفة التي جرى العرف على التمييز بينها
ترابطها وحدة قوية، لأن العمل الفني لا يتوجه إلى الحواس التي
ترى أو تسمع، وإنما يتوجه إلى النفس البشرية في عمومها،
وتأثيره في تلك النفس واحد وإن اختلفت الأشكال المادية التي
تبدو فيها آثار الفنون. ومن ثم فإن كروتشه لا يقر من يرون
لكل فن من الفنون الجميلة قواعد استاتيكية خاصة به، ويرى أن
فلسفة الجمال ينبغي أن تشمل بذات القواعد الفنون كلها لأنها
في حقيقتها فن واحد

هذا وإن عملية الإبداع الفني قد نالت من اهتمام كروتشه
جانباً كبيراً؛ ولا غرو فهي من أهم المسائل التي يتناولها الباحثون
في الفن والجمال، وفي مسدد الكلام عن الإبداع الفني يشير
كروتشه إلى التفرقة المعتادة بين الإلهام والتعبير، ويرى فيها ذات